## بريطانيا 2024: انكسار المرآة الإمبراطورية

## 08 أغسطس 2024

فكر وتحليل

9 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

## بريطانيا 2024: انكسار المرآة الإمبراطورية



فــ فجــر يــوم 29 يوليــو 2024، تحــولت ساوثبورت، المدينة الساحلية الهادئة في شمال غرب إنجلترا، إلى مسرح لمأساة هـزت أركـان المملكـة المتحــدة. أكســل موجــانوا روداكوبانــا، شاب بریطانی من أصل رواندی یعانی من اضطرابات طيف التوحيد، قتيل ثلاثية أطفال وأصاب ثمانية آخرين في ورشة محلية. لكن الشرارة الحقيقية كانت شائعة كاذبة انتشرت عـبر وسائـل التواصـل الاجتمـاعى، مدعيـة أن المهاجم مسلم.

هذه اللحظة أشعلت حريقاً كان يتراكم وقوده منذ عقود في أعماق المجتمع البريطاني. في بلد حكم يوماً الهند ودولاً إسلامية عديدة، أصبح رئيس وزرائها السابق من أصول هندية وعمدة عاصمتها مسلماً. إنها مفارقة التاريخ في أبهى صورها.

هــذه المفارقــة تعكــس تحــولاً عميقــاً فــي النسـيج الاجتمـاعي البريطـاني، تحــول بــدأ منـذ عقود ولكنه وصل الآن إلى نقطة الانفجار. كما يقول المؤرخ البريطاني الشهير، سيمون شاما: "بريطانيا اليوم تواجه أزمة هوية غير مسبوقة. إنها تصارع مع إرثها الإمبريالي من جهــة، ومع واقعهــا كمجتمــع متعــدد الثقافــات مــن جهـــة أخرى."

لفهم عمق هذه الأزمة، علينا العودة إلى جذور الهجـرة فـي بريطانيـا مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، حيـث قامت فـي استقدام العمـال مـن مسـتعمراتها السابقـة لإعـادة بنـاء اقتصادهـا المـدمر. كـان يُنظـر إليهـم آنـذاك كحـل مؤقـت، لكنهم أصبحوا جزءاً دائماً من النسيج الاجتماعي البريطاني.

هذا التحول الديموغرافي لم يكن مجرد تغيير فـي الأرقـام، بـل كـان تحــدياً عميقـاً لمفهـوم "البريطانيـة" نفسـه. كمـا يشيـر عـالم الاجتمـاع البريطــاني الشهيــر، ســتيوارت هــول: "الهويــة ليســت أمـراً ثابتـاً، بـل هــي عمليــة مسـتمرة مـن التفاوض والتحول. ما نراه اليوم هو صراع حول معنى أن تكون بريطانياً في عالم اليوم".

وفقاً لمكتب الإحصاءات الوطنية، وصل صافي الهجرة في 2023 إلى 685,000 شخص، مع وجــود 3.9 مليــون مســلم يشكلــون 6.5% مــن سـكان إنجلترا وويلـز. لكـن الأزمـة الديموغرافيـة الحقيقية تكمن في التباين الكبير في معدلات الخصوبة.

يقول أكثر من مراقب: معدل الخصوبة المرتفع بين المسلمين والجاليات الأخرى يثير مخاوف عميقـة لـدى اليميـن البريطـاني. هنـاك خـوف حقيقــي مـن أن تصـبح بريطانيـا "أجنبيــة" فــي أرضها. هذه المخاوف ليست جديدة. في عام 1968، ألقى السياسي المحافظ إينوك باول خطابه الشهير "أنهار من الدم"، محذراً من عواقب الهجرة الجماعية. اليوم، تجد صدى هذا الخطاب في سياسات الأحزاب اليمينية المتطرفة.

لكـن هنـاك وجـه آخـر لهـذه القصـة. قـال لـي صديق بربطاني قبل فترة: الجيل الثالث والرابع مـن المهـاجرين لا يــرون أنفسـهم كغربـاء فــي بريطانيـا. إنهـم بريطـانيون بكـل معنـــى الكلمـة، ولكنهـم يطـالبون بتعريـف أوســع وأكثـر شمـولاً للهوية البريطانية. في غضون أيام من حادثة ساوثبورت، تحولت شـوارع المـدن البريطانيـة إلـى ساحـات حـرب. الشرطــة، التـــي واجهــت انتقــادات لعــدم اســـتعدادها، اســـتخدمت القنابــل الدخانيــة وخراطيـم الميـاه. تـم اعتقـال أكثـر مـن 500 شخص في الأيام الأولى.

ومن اللافت للانتباه ماتم تداوله عن مسؤول أمني بريطاني: "لقـد فشلنا فـي توقـع حجـم الاســـتياء المتراكــم. أجهزتنــا الأمنيـــة كــانت مستعدة لمواجهة الإرهاب، لكنها لم تكن جاهزة لثورة اجتماعية."

الحكومة سارعت بتقديم مشروع قانون يشدد

العقوبات على مثيري الشغب ويوسع صلاحيات الشرطـــة فـــي مراقبــة وسائـــل التواصــل الاجتماعي. لكن هذه الخطوة أثارت انتقادات حادة من منظمات حقوق الإنسان.

أحـد المحاميـات حـذرت أمـس فــي BBC قائلـة: "نحن على شفا منحدر خطير. هذه القوانين قد تسـتخدم لقمـع المعارضـة السـلميـة تحــت سـتار مكافحة العنف."

صـديقي فـي الدراسـة والأكـاديمي السـابق الــذي نقــل أعمــاله مــن بلــده بريطانيــا إلــى سـنغافورة قـال لــي: "بريطانيـا تخــاطر بفقــدان موقعهــا كمركــز مــالى وتكنولــوجى عــالمـى.

الاســـتقرار السياســـي والاجتمـــاعي أساســـي لجذب الاستثمارات والمواهب."

ويضيف: "التأثير طويل المدى قد يكون أكثر خطـورة. نحـن نخـاطر بفقـدان جيـل كامـل مـن المـواهب والاسـتثمارات. اسـتعادة الثقـة فــي الاقتصاد البريطاني قد تستغرق عقداً أو أكثر."

في الشرق الأوسط، استغلت بعض الأنظمة الأزمة البريطانية للرد على الانتقادات السابقة. أحد المسؤولين الأصدقاء من دولة عربية كتب بحسابه الشخصي بالفيسبوك: "نأمل أن تتعلم بريطانيـــا الآن أن الديمقراطيـــة ليســـت وصــفة واحدة تناسب الجميع."

وسط هذه الأزمة، برزت أصوات الجيل الجديد من البريطانيين من أصول مهاجرة. زينب علي، ناشطة شابة من أصل باكستاني، تقول على شاشات الإعلام بوم أمس: "نحن بريطانيون بقدر أي شخص آخـر. هويتنا متعـددة الأوجـه وهـذا مصـدر قـوة، لا ضعـف. نحـن نريـد بنـاء بريطانيـا تحتضن تنوعها، لا أن تخاف منه."

هذا الصوت يمثل تياراً متنامياً في المجتمع البريطـاني. فهـل مـا نـراه هــو ظهـور هويــة بريطانيــة جديــدة، هويــة تجمــع بيــن التقاليــد البريطانيـة والتـأثيرات الثقافيـة العالميـة. هــذا التطور قد يكون مفتاح بريطانيا لمستقبل أكثر

انسجاماً وازدهاراً.

مع اسـتمرار الأزمـة، تـبرز ثلاثـة سـيناريوهات محتملة لمستقبل بريطانيا:

1. "بريطانيــا المنقســمة": اســتمرار التــوترات الاجتماعية يؤدي إلى تقسيم البلاد فعلياً إلى مجتمعات منعزلـة، مع تطبيق قوانين وأنظمة مختلفة في مناطق مختلفة. هذا السيناريو قد يؤدي إلى تفكك تدريجي للمملكة المتحدة، مع احتمال استقلال اسكتلندا وإعادة تو حيد أيرلندا.

2. "العــودة إلـــ المــاضي": صــعود اليميــنالمتطرف وتبنى سياسات صارمة ضد الهجرة

والتعدديـة الثقافيـة، مما قـد يـؤدي إلـى عزلـة بريطانيا دولياً. هذا قد يشمل خروج بريطانيا من اتفاقيـات دوليـة مثـل اتفاقيـة جنيـف للاجئيـن، وتشديد الرقابة على وسائل الإعلام.

3. "النموذج الجديد": نجاح بريطانيا في صياغة عقد اجتماعي جديد يوازن بين الهوية التقليدية والتنوع الثقافي، مما يجعلها نموذجاً يحتذى به عالمياً. هـذا قـد يتضمـن إصلاحـات جذريـة فـي نظام التعليم، وإعادة هيكلة الاقتصاد لتحقيق عدالة أكبر، وتبني سياسات اندماج أكثر فعالية.

ما يحدث في بريطانيا اليوم هو اختبار حاسم لقـدرة الـديمقراطيات الغربيـة علـــــ التكيـف مـع تحديات القرن الـ21. النتيجة ستشكل مستقبل النظام العالمي برمته او ربما تكتب رسميا وفاة نظرية "نهاية التاريخ" والتي هي بالفعل مريضة على أسرة أجهزة غرفة العناية المركزة.

بريطانيا على مفترق طرق تاريخي. هل ستنجح في إعادة تعريف نفسها كأمة متعددة الثقافات تحافظ على قيمها الأساسية؟ أم ستنزلق نحو الانقسام والعزلة؟

الطريـق إلـى الأمـام لـن يكـون سـهلاً عليهـم. سيتطلب حواراً وطنياً صريحاً وصعباً حول الهوية والانتمـــاء فـــي القـــرن الحـــادي والعشريـــن. ســـيتطلب إصلاحـــات جذريـــة فـــي التعليــــم والاقتصـاد والسـياسة الاجتماعيـة. وقبـل كـل شــيء، سـيتطلب قيــادة شجاعــة مســتعدة لمواجهة التحديات الصعبة بدلاً من الاختباء وراء شعارات بسيطة.

ان المجتمعات المتعددة الثقافات تواجه تحدياً مزدوجاً: الحفاظ على التماسك الاجتماعي مع احترام الاختلاف. نجاح بريطانيا في هذا التحدي قـد يقـدم نموذجـاً للعـالم بأسـره. ولكـن هـذا صعب للغاية.

وكمـا قـال ونسـتون تشرشــل ذات مــرة: "لــن تنتهــي هــذه لتكــون نهايــة. قــد لا تكــون حتــى بداية النهايـة. ولكنها، ربما، نهايـة البدايـة." اليوم، تقـف بريطانيـا مـرة أخـرس علـس عتبـة تحـول تاريخي. والعالم كله يراقب، منتظراً ليرس ما إذا كانت الأمة التي قادت يوماً إمبراطورية لا تغيب عنهـا الشمـس قادرة علـس قيـادة الطريـق نحـو مستقبل أكثر عدلاً وشمولاً للجميع.

في النهاية، قد تكون هذه الأزمة هي اللحظة التي تعيد فيها بريطانيا اختراع نفسها، متجاوزة إرثها الإمبريالي نحـو هويـة جديـدة تجمـع بيـن الماضي والحاضر، بين التقليد والتجديد. وكما يقول الشاعر البريطاني الراحل توني هاريسون: "الهوية ليست شيئاً نرثه، بل شيئاً نصنعه." ربما حان الوقت لبريطانيا أن تصنع هويتها من جديد.

هـذه اللحظـة التاريخيـة تحمـل فـي طياتهـا تحديات هائلة، ولكنها أيضاً تقدم فرصة فريدة لإعادة تشكيل المجتمع البريطاني على أسس أكثر عدالة وشمولية. إن نجاح بريطانيا في هذا المسعى لن يكون مهماً فقط لمستقبلها، بل سيقدم دروساً قيمة للعديد من الدول الأخرى التي تواجه تحديات مماثلة في عصر العولمة والهجرة الجماعية.

قد تكون بريطانيا قادرة على التكيف والابتكار وإعادة تعريف نفسها، وربما، هـذا ما سيحدد مصيرها. وكما أظهرت مراراً وتكراراً عبر تاريخها الطويل، فإنها تمتلك القدرة على النهوض من أعمق الأزمات وإعادة اختراع نفسها. هل ستنجح هذه المرة أيضاً؟ العالم كله ينتظر الإجابة.